

دلائل الإعجاز

له من غَيْرِ أَنْ يُقْصَدَ الذَّصُّ على معلوم . وكذلك قوله تعالى : (وَأَرْسَاهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَرْسَاهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) وقوله : (وَأَرْسَاهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى) المعنى : هو الذي منه الإحياءُ والإماتةُ والإغناءُ والإقناءُ .

وهكذا كلُّ موضع كان القصدُ فيه أن يثبتَ المعنى في نفسه فِعْلاً للشَّيْءِ وأن يُخْبَرَ بأنَّ من شأنه أن يكونَ منه أو لا يكونَ إلاَّ منه أو لا يكونَ منه . فإنَّ الفعلَ لا يُعَدُّى هناك لأنَّ تعديته تُنْقِصُ الغرضَ وتُغَيِّرُ المعنى . ألا ترى أنك إذا قلتَ : هو يُعطي الدنانيرَ كان المعنى على أنك قصدتَ أن تُعْطِيَ السامعَ أنَّ الدنانيرَ تدخلُ في عطائه أو أنه يعطيها خصوصاً دونَ غيرها وكان غرضُك على الجملة بيانَ جنسِ ما تناوله الإعطاءُ لا الإعطاءَ في نفسه . ولم يكن كلامُك مع مَنْ نفى أن يكونَ كان منه إعطاءً بوجهٍ من الوجوه بل مع مَنْ أثبتَ له إعطاءً . إلا أنه لم يُثْبِتْ إعطاءَ الدنانيرَ فاعرف ذلك فإنه أصلُ كبيرٍ عظيمٍ النفعِ . فهذا قسمٌ من خلوصِ الفعلِ عن المفعولِ وهو أن لا يكونَ له مفعولٌ يَمَكِّنُ الذَّصُّ عليه .

وقسمٌ ثانٍ وهو أن يكونَ له مفعولٌ مقصودٌ قاصدهُ معلومٌ . إلا أنه يُحْذَفُ من اللفظِ لدليلِ الحالِ عليه وينقَسِمُ إلى جَلِيٍّ لا صنعةَ فيه وخَفِيٍّ تدخلُله الصَّنعةُ . فمثالُ الجَلِيِّ قولُهُم : أصغيتُ إليه : وهم يُريدونَ أذني و : أغصيتُ عليه : والمعنى جفني . وأمَّا الخَفِيُّ الذي تدخلُهُ الصَّنعةُ فيتفننن ويتنوّع . فنوعٌ منه أن تذكرَ الفعلَ وفي نفسك له مفعولٌ مخصوصٌ قد علِمَ مكانُهُ إمَّا لجَرِيٍّ ذَكَرَ أو دَلِيلٍ حالٍ . إلا أنك تُنْزِسيه نفسك وتخفيه وتؤهِّمُ أنك لم تذكرَ ذلك الفعلَ إلا لأنَّ تثبتَ نفسَ معناه من غيرِ أن تُعَدِّيه إلى شيءٍ أو تعرضَ فيه لمفعولٍ . ومثاله قولُ البحريِّ - الخفيف - :

(شَجَّوْهُ حُسَّادَهُ وَغِطَّوْهُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعٍ) .

المعنى : لا محالة أن يرى مُبْصِرٌ محاسنه ويسمعَ واعٍ أخبارَه وأوصافَه . ولكنَّك تعلمُ